نور وصحراء

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

سارِ على البيدِ ، هزَّ الكونَ مَسْراهُ
صلَّى عليـــه ، وحَيَّا نورَه الله
اللهُ أكبر ! لاخطوٌ ولا قدَمٌ
لكنْ شعاعٌ بقُدس الوحْى تيَّاهُ
شَقَّ الصحارى فحيَّتْه سبارِسُها
وأوشكتْ برياض الخُلْد تلقـاهُ
ترعْرَعَتْ قَفْرةٌ ، واخضَوْضَرتْ جبلاً
وبثَّ فيها ضحى الدنيا مُحيَّاهُ
وزَمْزَمتْ .. فهى ترتيلٌ ، ومُسْبَحَةٌ
ودعـــوةٌ بأمانِ الله ترعاهُ
لم يبق فى صدرها حادٍ ولا نغَمٌ
إلا بمـا يسْحَرَ الأيامَ غنَّـاهُ
ما للخيام استَطارَتْ فى مَرابعها
مَحْرُورةً مِنْ عذاب الشوق نهْواهُ
رمالها رَفْرفتْ والريحُ تجْذِبُها
طيراً إلى الفجرِ يَهْديه جَناحاهُ ؟
وما لكلِّ ترىً نَسَّتْه عُزْلتَه
ملاعبُ الجنِّ ، لم تهدأ ثناياهُ ؟
همسٌ عَلَى الذَّرة الصُغرى ، وهيْنَمَةٌ
على سفوح الذرى ، والكلُّ أشْباهُ
تنبَّهتْ غفلةٌ ، واستيقظتْ سِنةٌ
وهبَّ نعسانُ ليلُ الدَّهر غشَّاهُ
وفى ضمير الفلاَ ما شئتَ من لهفٍ
تكادُ تمتدُّ للانوار كفـاهُ
تبارك الله ! كل الأرضِ ناظرةٌ
وكلها مُهَجٌ تهفـو لِمرآهُ
تَلفَّت الغيبُ ، والتفتْ عنايتُه
بمن تحمَّلَ سر الغيب جَنْبـاهُ
مُحَمدٌ ، وصـــلاة الله يا لَفمٍ
صلَّى ! وقلب على التوحيد ناجاهُ !
حقيقتـان هما حقٌ ولو قـدَرَتْ
نفسى لما شربتْ فى الحبِّ إلاَّهُ
هاجت على وحيهِ العُلوىِّ شِرْذِمةٌ
مُحيرونَ على أصنـامهم تاهـوا
مِنْ كلِّ عاتٍ من الأعراب ، صَوْلَتُه
يَدْرِى تَعَفُّرَها بالتربِ «عُزَّاهُ»
راموا خُطاهُ ... فكان الغارُ ، وارتجَزَتْ
حمامتاهُ ، وراغَ البيدَ مأواهُ
وشدَّ أنْوَالَهُ شيخٌ له نَسَبٌ
بالوَهْمِ .. آخرُ ما يَبْنيه يفْناهُ

بَنَى مِن الضعفِ حِصناً لو تساقُ له
شمُّ القادير ، لاندكَّتْ لِرُؤْياهُ
أالعنكبوتُ ! وما أدراكَ ما صَنَعتْ
يداهُ .. بأساً شعوبُ الأرض تَخْشاهُ
ألقى بفارسِهِمْ والخيلُ تعشقُهُ
فى مَرْكب صهواتُ الخيل تأباهُ
غاصتْ قوائمُها فى الرمل من خَجَلٍ
ولعنةٍ أوشكت للرمل تمحاهُ
يا فارسَ الشرك ! لا فاتتكَ خيبتُهُ
بَشِّرْ سِلاحَك أنَّ اللهَ أرداهُ
وقُلْ لِقومِكَ ، لا سِرًّا ولا علناً
تألَّقَ النورُ ، حتَّى عزَّ مَرْقاهُ !
سَرى « مُحَمَّدُ » تطوى الشمسَ رايتُهُ
فى عَسكرٍ قبلَ هذا ما سَمِعناهُ . .
يَمْشي وصاحِبُهُ « الصِّدِّيقُ » وِحْدَهُما
فى مَهْمَهٍ يقرعُ الأيامَ لُقْياهُ
عقيدةٌ جَنْبَها الإيمانُ ، يَمْلؤُها
صَفْواً ، وتملأُ بالبُشْرى حَناياهُ
ويَخْطِفان الثرى نَصْراً إلى بَلَدٍ
لا خيَّبَ اللهُ مَنْ يَسْعى لِمَغْناهُ !
يَمشى ، فتحسَبُه الأقدارَ جاريةً
لَها من الغيب ما للغَيْب تَرْضاهُ
مُبَشِّرٌ بضُحًى للكَوْنِ ، يُنْقِذُهُ
من ظُلْمةٍ لَيْلُها لَجَّتْ خطاياهُ
ظُلْمٌ ، وشِرْكٌ ، وقومٌ عاكِفُون على
رَبٍّ ، من الصخرِ مِسكين عَرَفْناهُ
.. صخرٌ ذليلٌ يعافُ الوحشُ جِيرَتَهُ
ودُودَةُ الأرْضِ لا تَرضَى بمَثْواهُ !
أتى إليهم بِبَحْرٍ لا ضفافَ لهُ
مِن الضِّياء ، يَرُوعُ الشمسَ ضَحْواهُ
مِرٌّ من اللهِ ذابَ العقلُ ، وانكفأتْ
أطْوارُهُ الشُّمُّ فى أغوار مَعْناهُ
وحى من الله ، فرقانٌ ، هُدى زَمَنٍ
سيفٌ يَفُلُّ حديد الدهر حدَّاهُ
ربَّاه مهما رجتْ أيامُنا فلها
فى كلِّ حرفٍ به نورٌ نُلَقَّاهُ
بحق من سار بالإعجاز يُبْلِغُهُ
للخافقَين ، ومَنْ للحقِّ أنشاهُ
بحقِّ هذا الذى غَنَّتْ بجِرْزَتِهِ
كلُّ العواصِمِ أرْواحٌ وأفواهُ ،
تُعطى سرائرنا لُطْفاً ثم به
إنَّ الطريقَ زحامُ الشرِّ لوَّاهُ !
وتنفخُ النيلَ هدياً فى مسالكِهِ
فإنما فى مدار الشمس مجراهُ
وتهلك الحفنةُ الفوضى مطامعها
فإنهم كخشاش الأرض تأباه
ليس الوجود لهم مأوًى ولا سَكَنٌ
ولن يكون لهم فوق الثرى جاهُ
عانوا فعذَّبهم جيشَ لمصر مَضَى
يَسقيهمُ الموتَ لا يُبْقِى أشِدَّاهُ
ما زالَ فى البيد مِنْ آثامِهِمْ صَخَبٌ
واللاَّجِئُونَ هُمُ فى التِّيهِ شكواهُ
ربَّاه فاجعَلْ تُرابَ الشرقِ مَهْلَكَةً
لِكلِّ باغٍ عوَتْ بالقيد كَفَّاهُ
ربَّاهُ واسكُبْ غناءً فى جوانحه
ناراً ونوراً أذانُ البعثِ ناداهُ
ملَّتْ رباباتىَ التَّغريدَ فى زَمَنٍ
تَعْشَى على خطفة الإلهامَ عَيْناهُ
إلاَّ « محمداً » ! .. فالأوتارُ إن بَلِيَتْ
عادَتْ به أرْغُناً بالسحر غَنَّاهُ !!

محمود حسن اسماعيل